د. محمد دودح

الباحث العلمي

توافق رسم القرآن الكريم وتلاوته مع السياق

يتميز القرآن الكريم بتراكيب ومضامين متميزة، فهو نسيج وحده لا يماثله كلام بشر، وقد تحدى به الله أمهر المخاطبين بيانا وعلما فعجزوا.. فقد جاء رسم كل كلمة ونطقها في سياق يميز دلالتها ويضيف إلى أصل مادتها ما يؤكد توظيف كل الإمكانيات اللغوية لخدمة موضوع السياق نظما وإيقاعا واشتقاقا ودلالة، وهكذا وظفت الإمكانيات الصوتية لتتناغم مع السياق وكذلك الرسم المحفوظ نقلا ولذا سمي التنزيل العزيز قرآنا وسمي كتابا وتحدى بنسيجه المعجز جميع المخاطبين كتابة وتلاوة وبياناً، وإتباع أحكام التلاوة يعطي معان جديدة قد لا تتضح للمؤدي بغير التفات للدلالات الضمنية والإشارات الإيحائية وإنما يكتفي بأجر الالتزام بالأداء فحسب، فمد الحرف أو إظهار التنوين والنون الساكنة أو تطبيق الغنة في التنوين والنون الساكنة أو إدغام التنوين والنون الساكنة في بعض الحروف بالإضافة إلى باقي أحكام التلاوة يعطي معاني إضافية، فالإظهار يعني الالتصاق والفورية والقطع أما الغنة فتعطي المهلة وكل تغير يتمشى مع المشهد المعروض، وكل ذلك يثبت أن ترتيل القرآن الكريم توقيفي وكذلك رسمه، ومن الناس من يأكل الطعام ليملا بطنه ويتخلص من تقلصات الجوع أداء للواجب ومنهم ذواقة يميزون أطايب الطعام وإن لم يلتفت إلى متعتهم وبهجتهم كثير ممن يفضلون التخمة على التذوق، إنه إعجاز من الله ترتيبا واختيارا ودقة وإحكام مذهل وتمييزا في المشاهد المختلفة وعروض مبهرة تهز بكل كيان المتأملين وتأخذ بألبابهم ووجدانهم.

ولك أن تجمع شواهد عديدة على أن الرسم العثماني توقيفي كما ذهب إليه جل المحققين وليست الفروق في الرسم أخطاء الكتاب كما ذهب إليه قلة ومنهم ابن خلدون في مقدمته وكأن الكتاب العزيز غير محفوظ، فمثلا أول كلمة في البسملة هي (بسم) قد جاءت ناقصة المد بالألف حين نسبت إلى لفظ الجلالة بينما جاءت كاملة حين نسبت إلى الرب، وكلمة (الليل) جاءت في القرآن الكريم كله ينقصها حرف اللام الأوسط أما كلمة (النهار) فجاءت كاملة بجميع أحرفها، وحرف المد (الألف) قد يأتي في بعض الكلمات القرآنية متروكاً برسم ألف صغيرة ولكنه جاء في كلمة النهار واضحاً ظاهراً، وحين نتلمس الحكمة في ذلك نجد أن الليل بالنسبة إلى النهار منكمش قصير العمل فيه قليل فالغاية منه السبات والسكن أما النهار ففيه السبح الطويل والعمل والجد، وكأن مجرد هذا التمييز يقول لذو الذوق الرفيع (إن لك في النهار سبحاً طويلاً)، فكل ما يميز الكلمة قي الرسم في سياقات مختلفة عنها نفسها أو عما يلازمها من وجوه أو أضداد يلفت المتدبر النابه لدلالة تميزه عمن يقل عنه التفاتا وتنبها، وبقدر الرعاية والاهتمام بالتلاوة والقراءة يحصد المزين مما يزيد يقينه ويطرب وجدانه ويهز كيانه، فمبنى الكلمة إذن وعدد أحرفها يضيف إلى المعنى القريب لها معان بعيدة رائعة لا يلتفت لها إلا من عدل عن التلقين إلى المعايشة مع القرآن الكريم، فالكلمة القرآنية تأتي على رسم مختلف عن الرسم الأصلي لها لتوحي بأن في السياق قضية عظيمة يجب الالتفات لها، فكلمة (نشاء) مثلا قد جاءت في القرآن كله على هذا الرسم من عدد الحروف إلا في موضع واحد قد جاءت على رسم مختلف هو (نشؤا) في الآية ٨٧ من سورة هود، والقول بالصدفة وخطأ الكتاب إنما هو نتاج نظرة لم تمتد بها الرعاية اللائقة بالقرآن الكريم لتتذوق البدائع والروائع الدفينة الخبيئة للنابهين.

وعلى سبيل المثال قد وردت لفظة (إبراهيم) عليه السلام في القرآن الكريم برسمين في ٥٨ موضعا، في سورة البقرة ١٥ مرة رسمت (إبرهم) بدون ياء ابتداء من قوله تعالى: "وَإِذِ ابْتَلَىَ إِبْرَاهِيمَ رَبّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمّهُنّ" البقرة 124، ومن سورة آل عمران إلى نهاية المصحف رسمت بياء ابتداء من قوله تعالى: "إِنّ اللّهَ اصْطَفَىَ آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ" آل عمران 33، إذن دل الرسمان على اسم الشهرة قبل الابتلاء وأصله الوصفي بعد الاصطفاء فكأنه أكد أن الاسم على المسمى كما هو حال الاسم (محمد) وأصله مشتق من الحمد فوصف في القرآن الكريم بأحمد مؤكدا أن الاسم على المسمى حقا وكأنه تعالى قال: (هو حقًا محمدٌ) عليه الصلاة والسلام، إذن إبراهيم عليه السلام له اسمان هما (إبراهم) بدون ياء وسطية وتعني في لغة قومه الكلدان (أبو العلاء) من العلو والرفعة وذلك قبل نجاحه في الابتلاء العظيم بذبح ولده الوحيد إسماعيل والآخر إبراهيم (بزيادة الياء) وتعني في لغة قومه (إمام الناس) يعني في الدين، وفي الاصحاح السابع عشر من سفر التكوين أن إبراهيم كان اسمه (إبرام) وكان عمره ٨٦ سنة لما ولدت هاجر ابنه اسماعيل عليه السلام ولما بلغ ابراهيم ٩٩ سنه تكلم الله معه وقال له انه سيكون أبا لجمهور من الأمم وسيكون اسمه إبراهيم، وقد حاول المؤلف في مدونات الكتاب دفع سبب تعديل التسمية مع الحفاظ على أصل الجذر اللغوي إلى كثرة النسل ولكن كشف تلاعبه أن الابن الوحيد هو إسماعيل وليس إسحاق.

وقد يمتد التمايز للحرف كما في سورة البقرة حيث رسمت الميم عرضيا إلا في سياق موقف فاصل واضح يلزمه قطع وتأكيد فرسمت رأسيا في قوله تعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" البقرة 258، وتكرار (إبراهيم) ثلاث مرات يزيد القطع والتأكيد، وفي بقية المصحف رسمت الميم كذلك عرضيا في مواضع النقل الخبري المجرد للحدث إلا إذا شابه فصل وحزم وقطع ووضوح فيرد رسمها رأسيا وكأنه يقوم بوظيفة النبر نطقا، وذلك في أربعة وعشرين موضعا كما في قوله تعالى: "يَأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجّونَ فِيَ إِبْرَاهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ التَّورَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلاّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ" آل عمران 65، وقوله تعالى: "مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" آل عمران 67، وقوله تعالى: "قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتّبِعُواْ مِلّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" آل عمران 95، وقوله تعالى: "قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّيَ إِلَىَ صِرَاطٍ مّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" الأنعام 161، وتؤكد الأدلة أن الرسم يتوافق مع السياق ومع اختلاف القراءات تتمايز عن بعضها البعض في وجوه التوافق بلا تناقض وهي سمة تشهد للقرآن الكريم بالوحي وحفظ المضامين مع تيسير القراءات بما يتناسب مع لهجات المخاطبين ابتداء.

والله تعالى أعلم.